

الباب الأول

تمهيد

عندما نحاول أن نعرف علم النفس نجد أن أمامنا مهمة عسيرة . وليس ذلك بغير ، فإنه ليس من السهل تعريف أى علم من العلوم ، حتى العلوم الطبيعية مع ما امتازت به من تحدد المنهج ووضوح المعالم .

وتبدو الصعوبة لأول وهلة في تسمية العلم ، فهو علم " النفس " ، واستعمل كلمة " النفس " في ذاته أمر يدعو الى التساؤل . ما هو المقصود بها ؟ أهى " الروح " أم " العقل " أم هما معا ؟ أم شىء آخر غيرهما ؟

والواقع أن الإجابة على هذا السؤال لن تكون مجدية تماما إلا بعد دراسة هذا العلم ، ولكننا نستطيع أن نقول باختصار إن علم النفس الحديث هو أحد العلوم التي تدرس " الإنسان " ، فننظر الى جانب من جوانبه المتعددة ، وتحلل هذا الجانب ، وتصل فيه الى الحقائق وتربط العلل بالمعلولات ، ثم تربط بين هذا الجانب الذي تدرسه من الإنسان وبين جوانبه الأخرى .

ما هو هذا الجانب الذي يدرسه علم النفس ؟ لعله ، ليس هناك ما يوضح لنا اتجاه علم النفس الحديث خير من مقارنته بعلم أنجروا ضح المعالم لدرجة كبيرة ، هو علم وظائف الأعضاء ، أو " الفسيولوجيا " فهذا العلم أيضا يدرس الإنسان ، يدرس جانباً من جوانبه ، هو جانب الوظائف التي يقوم بها جسمه ، بكليته وبأجزائه . فهو ينظر الى التنفس ، الى التغذية و الى النمو ، الى الإخراج و الى التناسل .. و الى غير ذلك من الوظائف التي يقوم بها الكائن الحي أو تقوم به ، ويحاول أن يبحث عن كيفية حدوثها وعن آثارها وعلاقتها ببعضها بعض . الى غير ذلك .

والإنسان لا تقتصر حياته على أنه يأكل ، ويخو ، ويتنفس ، ويتحرك . .
وإنما هو يقوم بوظائف أخرى أو تقوم به هذه الوظائف . فهو يشعر ويدرك
ويفكر ، ويتذكر ، وينفعل ، ويريد ، ويغضب ، ويرضى ، ويسر ،
ووظيفة علم النفس أن يدرس هذه "الوظائف" دراسة توصلنا إلى فهم
الكيفية التي تحدث بها ، وإلى ما بين بعضها والبعض الآخر ثم ما بينها وبين
وظائفه الأخرى — الفسيولوجية — من علاقات وتفاعلات . وعلم النفس
الحديث ينظر إلى النفس خلال هذه الوظائف ، فيعتبر أن هذه الوظائف
"النفسية" هي مظهر النفس ، أو بعبارة أخرى فإن النفس مجرد تسمية بجانب
من جوانب الإنسان باعتباره كائنا حيا . فكأنها "الوسط" (١) الذي تحدث فيه هذه
الوظائف ، إذ أنه من العسير أن نتصور قيام هذه الوظائف بدون "وسط"
تحدث فيه كما يصعب علينا أن نتصور انتقال موجات الضوء والكهرباء بدون
وسط تحدث فيه ولذلك نفرض وجود الأثير .

ومعنى ذلك أننا ننظر إلى الكائن الحي — والحيوان في ذلك مثل الإنسان —
باعتباره وحدة فكا أنه يتغذى ويتنفس ، فهو يشعر ويدرك ويريد ، بل إنه
ليقوم بكل النوعين من الوظائف مندججة معا .

إذن فمجموعة الوظائف التي يبحث فيها علم وظائف الأعضاء وتلك التي يبحث
فيها علم النفس كلها وظائف الكائن الحي ، وإنما تميزت الطائفة الأولى من هذه
الوظائف بإمكان تتبعها تتبعاً مادياً ، فنحن نستطيع أن نحلل الطعام الذي تتناوله
في المعمل ، ونستطيع أن نتبع العمليات التي يمر بها من تمزيق وطحن وما يصيب
عليه من سوائل هاضمة وما يحدث له في الفم والمعدة والأمعاء إلى آخر ذلك .
فالأجهزة التي تقوم بوظائف الهضم والتنفس والإخراج أجهزة معروفة لنا نستطيع
أن نصل إليها بالتشريح وبالتجارب والمشاهدة الفعلية .

أما الطائفة الثانية من الوظائف من تفكير وإدراك وشعور ، فليست من
نفس النوع ، فهي لا تخضع لمبضع الجراح ، وتستعصى على عدسة الميكروسكوب ،
ولا نستطيع أن نتبعها في المعمل بالمشاهدة الفعلية .

ولذلك كان لعلم النفس طرائقه الخاصة المستمدة من طبيعة الوظائف التي يبحث فيها .

(١) Medium كما هو مفهوم في علم الطبيعة

ولا شك في أن البحث في أي العالمين ، علم وظائف الأعضاء وعلم النفس ، يثير بالضرورة إلى البحث في الآخر . فإذا تتبعنا أية وظيفة من الوظائف الفسيولوجية ، فإننا سنجد في النهاية أن أداءها مرتبط بتلك المجموعة من الأنسجة الرخوة المحيية داخل التجاويف العظمية العصبية للمخجمة والعمود الفقري ، وما يتبعها ، وهي التي نسميها إجمالاً بالجهاز العصبي .

وإذا بحثنا في الوظائف النفسية فإن البحث يقودنا في النهاية إلى نفس المصدر ، غير أن وظيفة المخ باعتباره عاملاً فعالاً في الوظائف الفسيولوجية للجسم وظيفة أغلبها معروف ، ولكن وظيفته باعتباره مركزاً للعمليات العقلية أو النفسية أغلبها مجهول وأقلها معروف . في هذه الساحة إذن تلتقي الوظائف النفسية والوظائف الفسيولوجية ومن هذا التلاقى تنشأ العلاقة الوثيقة بين النوعين من الوظائف ، بل الوحدة التي تتجلى في الكائن الحي .

والعلاقة بين الجسم والنفس مما شغل الباحثين أجيالاً طويلة ، وما زال ولن يزال يشغلهم ، وكلُّ يحاول أن يحل معضلاته بطريقته الخاصة . فهو يشغل الفلاسفة ، يحاولون أن يصلوا إلى الحل بتأملاتهم ، ويشغل علماء النفس وعلماء البيولوجيا والطب ، يحاولون أن يصلوا إليه بالتجارب والمشاهدات .

إذا كنا قد استطعنا أن ندرك الآن ما الذي تقصده بعلم النفس بوجه الإجمال ، فلنتقل إلى النقطة الثانية لنلخص فيها كيف نظر العلماء إلى النفس في مختلف العصور ، فنجد أن هناك طريقين متوازيين للبحث بدأ أحدهما فلسفياً والآخر طبيًا وانتهى بهما الأمر إلى أن تقاربا ثم اندمجا لدرجة كبيرة .

أما الأول فقد بدأ منذ عهد الفلاسفة الإغريق فقد اهتموا بالعلم ، وبما أن "العقل" هو أداة العلم فقد انصرف همهم إلى دراسة "العقل" ، وكانت دراستهم منصبنة أكثر ما تكون على جانب مما نسميه الآن بالفكر أو المعرفة ، وقد استمر الاهتمام بهذه الناحية خلال العصور الماضية ، ولا يزال إلى الآن الشغل الشاغل لكثير من علماء النفس ، فالإدراك والفكر ، والتذكر والذكاء وما إليها لا تزال من أهم ما يشمله علم النفس .

وأما الطريق الآخر فنستطيع أن نرجعه إلى عهد جالينوس الاغريقي أيضا ،
الذي أراد أن يفسر ما يبدو على أفراد الجنس الانساني من فروق في "المزاج" (١) ،
فهناك الشخص النشط وهناك المنفتح وهناك المتهور وهناك الكسول الخامل ،
وهناك القوي ثم الضعيف الخائر ، وقد أرجع جالينوس هذه الفروق إلى تفاعل
أصنجة أو "سوائل" أربعة موجودة في الجسم وتطلب أحدها على الأخرى .

ونشأت عن ذلك الأصنجة الأربعة المشهورة ، الدموي والصفراوي والسوداوي
والبلغمي أو "اللفاوي" ، ولكل منها خصائص يمتاز بها ، فبينما نجد أن
الدموي يتميز سلوكه بالنشاط والتقلب ، نجد أن سلوك البلغمي يتميز بالضعف
والخمول ، والصفراوي بالعناد والطموح ، والسوداوي بالانتباض والوجوم
والتشاؤم وحب الانفراد ، ومن الغريب أن العلم الحديث يوافق على أن الشخصية
تتأثر تأثرا واضحا بسوائل معينة موجودة في الجسم ولكنها ليست سوائل
جالينوس وأخلاقه ، بل هي إفرازات الغدد ذات الإفراز الداخلي (٢) كالدرقية
وفوق-الكولية والنخامية وغيرها ، مما يصب إفرازاته في الدم . ولكثرة الإفراز
وقلته أثر واضح في الشخصية .

وقد تردد صدى كل من الاتجاهين في أثناء النهضة الفكرية الإسلامية . وكان
من أثر ذلك أننا نجد في كتابات فلاسفة العرب لفظي النفس والعقل . ولم يكن
اللفظان مترادفين وإنما كان كل منهما يشير إلى اتجاه خاص في تناول الموضوع .

فالنفس كانت أكثر ما تُذكر عند ما يقصد إلى إبراز ناحية الانفعال أو الرغبة
أو الشهوة ، هذا إلى تضمين المعنى أحيانا لما نفهمه من الروح ، وأما العقل
فُيذكر عند ما يقصد الكاتب إلى المعرفة أو الذاكرة أو التفكير إلى غير ذلك من
نواحي "الفكر" ، والواقع أن ألفاظ الروح والنفس والعقل قد أدت معاني مختلفة
في أوقات مختلفة .

ولكنها كثيرا ما تداخلت تداخلا كبيرا . فالروح كثيرا ما قُصد بها الكاتبون
ما يتعلق بالقيم الخلقية ، بينما النفس كثيرا ما خُصصت للمعاني المتعلقة بالشهوة
أو الناحية "الحيوانية" من الإنسان . أما "العقل" فقُصد به غالبا الناحية المفكرة
المدبرة من الإنسان .

وعلم النفس الحديث لا ينظر إلى هذه النواحي كوحديات مستقلة منفصلة ، بل يجمع بينها جميعا باعتبارها مظاهر لكل واحد تسميه أحيانا بالنفس وأحيانا بالعقل ، ولا نفرق عادة بين التسميتين ، فهما الآن في كتابات المحدثين باللغة العربية لفظان مترادفان لا مختلفان ، وسنجد أننا نستعمل اللفظين في هذا الكتاب بمعنى واحد .

قلنا إنه كان هناك طريقتان متوازيتان للبحث فيما نسميه الآن علم النفس ، أما الطريق الفلسفي الذي كان ينصب في أغلبه على البحث في المعرفة فقد لقي من عناية الفلاسفة ما جعله يتقدم ويثمر ويصبح هو الغالب ، بينما ظل الطريق الآخر مدة طويلة واقفا عند الحد الذي أوصله إليه جالينوس .

وبقي الحال على ذلك إلى أن أتى " كانت (١) " الفيلسوف المعروف بوصف العقل وصفا ضم جوانبه بعضها إلى بعض ، فقد قسم جوانب العقل إلى العلم ، والوجدان ، والإرادة ، وهي الجوانب التي اشتهرت بعد ذلك باسم المعرفة ، والوجدان ، والنزوع ، وبذلك أدخل في حساب الفلاسفة هذين الجانبين الجديدين من جوانب النفس وهما الوجدان والنزوع ولم تعد المعرفة وحدها تشغل كل ميدان تفكيرهم . وتمهدت الطريق للاهتمام بالانفعال من جانب علماء النفس وبالرغم من ذلك فقد ظلت سيكولوجية المعرفة هي الغالبة بحكم التقليد ، وظل علم النفس يهتم أكثر ما يهتم بدراسة الناحية الفكرية للإنسان ، وظلت نظريات علم النفس ترجع أساس سلوك الإنسان إلى المعرفة والتفكير . وخير مثال لذلك نجده في سيكولوجية " هربارت " منشى علم النفس الحديث ، فقد نسب كلا من الرغبة والإرادة إلى فاعلية " الأفكار " والفكرة المتغلبة تتحول إلى رغبة فإذا سمحت الظروف تحولت إلى إرادة . وعنده أن الألم ناشئ من التضارب بين الأفكار ، والسرور ناشئ من فضل القوى التي تدخل بها الأفكار إلى شعورنا . كما أن الخلق نتيجة لمجموعة الأفكار السائدة التي تصل إلى نوع من التفوق الدائم في الشعور ، فنتسمل للشعور أن يصطنع الأفكار المماثلة لها وتقاوم دخول الأفكار المضادة (٢) .

(١) Immanuel Kant 1781 : Critique of pure Reason.

(٢) Flugel : Hundred Years of Psych. p 20 أنظر

وعلى ذلك يكون قد أرجع الحياة النفسية كلها إلى نوع أو آخر من أنواع التفاعل بين الأفكار . فهى أساس الوجدان ، أساس اللذة والألم ، وأساس الخلق والشخصية .

وفى جميع هذه الأدوار التى مر بها علم النفس لانكاد نجد ذكرا للفرايز أو الدوافع أو غيرها من المصطلحات التى دخلت بعد ذلك وأصبحت من المفهومات الأساسية فيه . فالغريزة^(١) مثلا كانت فى نظر الباحثين وقفنا على الحيوان ، توجهه إلى أداء ما يحتاجه فى حياته من الأعمال ، وتسييره فى الطريق الذى يحفظ حياته ويحفظ نوعه . أما الإنسان فقد وهب "العقل" الذى يهديه ويشره . فكأنما هناك تناقض أساسى بين فكرة العقل وفكرة الغريزة ، فالأول منطقي مبصر ، والثانية عمياء مندفعة ، الأول يُكتسب ويهدب ، والثانية تورث ولا تكتسب .

فبالرغم مما فعله "كانت" إذاً من مزج الفكر بالوجدان والنزوع واعتبارها جميعاً من مظاهر العقل ، بقيت هناك مشكلة أخرى تتطلب الحل . وهى إيضاح العلاقة التى تربط بين العقل فى الإنسان وبين الغريزة فى الحيوان ، وقد ساعد على بروزها أن ظهرت فى النصف الأخير من القرن الماضى نظرية "داروين"^(٢) التى اعتبرت الإنسان حلقة فى سلسلة طويلة حتى سلسلة الأحياء على اختلاف أنواعها ، وقد قضت هذه النظرية على ما كان يُظن من انفصال عالمى الإنسان والحيوان انفصالا تاماً ، وأظهرت أن الإنسان من الوجهة التشريحية والوظيفية ما هو إلا استمرار لمجموعة من التراكيب والوظائف التى بدأت فى أبسط الكائنات الحية ، وظلت تتطور من درجة إلى درجة ، وتزداد تركيباً وتعقداً ، حتى وصلت إلى الصورة التى نعرفها فى الإنسان . وبذلك أصبح الإنسان من الناحية الجسمية قمة من قمم التطور الذى بدأ فى المراتب الدنيا من الحياة ، فهل يُعقل أن يكون من الوجهة العقلية نسيجاً وحده فى الكائنات الحية ؟ لم يكن من اليسير أن تصمد هذه النظرة الانفصالية أمام سبيل التطورية الجارف ، فما لبث علم النفس أن تأثر بالنظرة الجديدة وبذلك وجدت "الغريزة" مكانها إلى جانب "العقل" فى المباحث النفسية المتعلقة بالإنسان فبرزت بصفة خاصة فى كتابات لويد مورجان^(٣) وجيمس^(٤)

Charles Darwin (٢)

William James (٤)

Instinct (١)

Lloyd Morgan (٣)

ومكدوجل^(١) وغيرهم . ونرى الفريزة في كتابات مكدوجل تبرز حتى تصبح هي الأساس الأول الذي يشق منه سلوك الإنسان على اختلاف أنواع هذا السلوك وعمراته وهذه النظرة تمثل نقطة تحول في علم النفس تستحق أن نقف عندها بعض الشيء . فقد أصبح من الضروري أن يبحث علم النفس عن الصلة "العقلية" بين الإنسان والحيوان ، حتى يظهر على الأساس التطوري المشترك بينهما . لأن نظرية التطور حتمت اعتبار الإنسان مجرد حلقة جديدة في السلسلة الحيوانية وقد ساهم دارون نفسه في وضع هذا الأساس المشترك بما ذكره في كتابه عن "التعبيرات الانفعالية عند الحيوان والإنسان"^(٢) ، وقد فصل فيه فعل العضلات المتقابلة عند كل منهما في التعبيرات الانفعالية المختلفة .

وقد أدت هذه النظرة إلى البحث عن "غرائز" الإنسان ، وعما هو "فطري" فيه وبدأ علم النفس يتجه بهذا الاتجاه . ولم يكن من السهل أن يفتن علم النفس إلى هذه الحقيقة قبل ظهور نظرية التطور . وكان من نتائج هذا الاتجاه أن ظهر "علم النفس الحيواني" كفرع من علم النفس له قيمته في توجيه علم النفس "الإنساني" .

وقد بدأ علم النفس في الوقت نفسه يتجه اتجاها اجتماعيا وبدأ علماء الاجتماع وغيرهم يبحثون عن تفسير نفسي للظواهر الاجتماعية والإنسانية المختلفة . وكان مكدوجل في مقدمة أولئك الذين حاولوا أن يوجهوا علم النفس توجيها اجتماعيا . فقد عني بأن يبرز الناحية الاجتماعية في الغرائز الإنسانية وأن يتبع النزعات الاجتماعية المختلفة إلى أصولها الفطرية .

وفي الوقت الذي كان فيه مكدوجل يمثل خلاصة الاتجاه الأكاديمي في علم النفس في أوائل القرن الحالي بدأ اتجاهٌ مشابه له مشابهة كبيرة ولكنه يرجع في أصله إلى البحث الطبي وهو اتجاه "فرويد"^(٣) في فيينا .

ومن الغريب أن أوجه التشابه بين الاثنين كانت كبيرة بالرغم من التفاوت الهائل بين النظريتين التي انتهى إليها كل منهما .

(١) Mc Dougall

(٢) Darwin : Expression of the Emotions in Man and Animals, 1872

(٣) Sigmund Freud

وبما أننا سنتفرغ في هذا الكتاب لشرح نظريات فرويد فقد آثرنا أن نضع أمام القارئ في هذه المقدمة شرحاً مختصراً لسيكولوجية مكدوجل، وأساس السلوك الإنساني عند مكدوجل كما قلنا هو الغريزة، والغريزة في نظره معنى خاص، فهي استعداد متعدد النواحي إذ أن لها جوانب ثلاثة مشتقة من مظاهر النفس التي وصفها "كانت" وهي الإدراك والوجدان والتزوع، فالنار مثلاً إذا فوجئ برؤية القبط فإنه يدركه إدراكاً خاصاً وينتبه له، ويشعر بانفعال الخوف، الذي يدفعه إلى التزوع نحو الهرب التماساً للنجاة، فكأن الموقف الغريزي يشمل الأنواع الثلاثة الإدراك والوجدان والتزوع، ويحدث مثل ذلك بالنسبة للإنسان عندما يمر بموقف تثار فيه إحدى غرائزه.

وقد قسم مكدوجل غرائز الإنسان إلى نحو أربع عشرة غريزة^(١) مختلفة نسب إليها سلوكه على اختلاف أنواعه. وجعل لكل غريزة مثيراً خاصاً، ويعتبر إدراك هذا المثير بدءاً لإثارة الفعل الغريزي، كما أن لكل منها انفعالا خاصاً بها وسلوكاً خاصاً تدفع إليه.

ومن الأسس التي تقوم عليها سيكولوجية مكدوجل أن السلوك يجب النظر إليه دائماً في ضوء الدافع الذي يدفع إليه، والغاية التي يرمى إليها. فكل سلوك ينتج عن دافع ويرمى إلى غاية.

والدافع نوع من "الطاقة" أو "النشاط" الداخلي يحفز الإنسان إلى السلوك بلوغ "غاية" معينة وبين "الدافع" "والغاية" يتنوع السلوك تنوعاً واسع المدى. وهذا التوكيد لغائية السلوك جعل المذهب السيكلوجي الذي يمثله مكدوجل يعرف بمذهب "الغائية"^(٢).

للإنسان إذن غرائز فطرية مثله في ذلك مثل الحيوان، غير أن الغرائز في الحيوان متشابهة، جامدة، موحدة الصورة. وهذا هو الذي جعل ملاحظتها سهلة من مبدأ الأمر، أما الإنسان فإن المشاهد لسلوكه يجد تنوعاً كبيراً في السلوك واختلافاً بين الأفراد، فكيف يتفق ذلك مع وجود غرائز مشتركة بين الناس؟

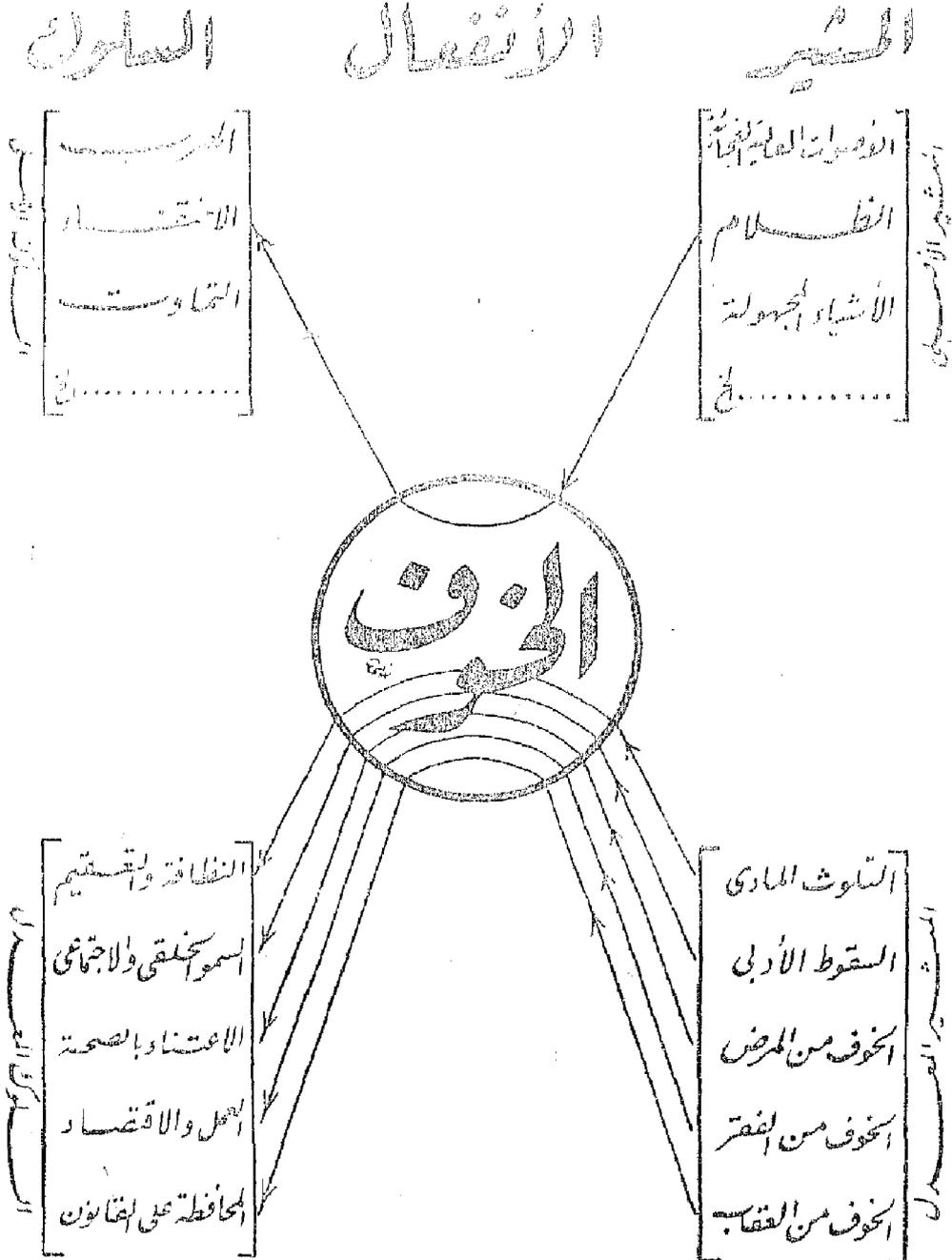
(١) التماس الطعام، الجنسية، التفرغ، الخوف، الاستطلاع، الوالدية، التجمع، السيطرة، الخضوع، الغضب، التملك، البناء، الاضطجاع، الهجرة، وغرائز أخرى أقل أهمية.

يعمل مكدر وجبل ذلك بأن الغرائز عند الإنسان قابلة للتعديل في ضوء الخبرة التي يمر بها الفرد ، وفي ضوء ” الغاية “ التي ترمى إليها غرائزه . فغريزة الخوف مثلا يثيرها عند الطفل الصغير مثيرات معينة كصوت عال مفاجئ مثلا ، وانفعالها الخوف ، وهو مسروق لدينا . والسلوك الذي ترمى إليه هو الهرب من مثير الخوف . ولكن الغريزة تتعدل في حياتنا فنحن مع الوقت نتخلص من كثير من المثيرات التي تخيف الطفل ، وفي الوقت نفسه نتعلم أن نخاف أشياء جديدة لا تخطره . على بال ، فنخاف العار أو الفضيحة أو السقوط الأدبي إلى غير ذلك ، ثم إننا لا نهرب إذ نخاف هذه الأشياء بل نتبع طرقا أخرى للتخلص مما يخيفنا ، ونحن نغضب في الطفولة إذا حيل بيننا وبين غاياتنا ، فالمثير الذي يثير الغريزة هو الحيلولة دون بلوغ الغاية ، والانفعال هو الغضب ، أما السلوك الناتج فهو الرغبة في تدمير العقبة التي وقفت في طريق الغريزة ، ولكننا إذ نتقدم في العمر نتخلص من كثير من مثيرات الغضب ونحلّ غيرها محلها فنغضب للكرامة ونغضب للاعتداء على الضعفاء ونغضب للوطن أو للدين أو لغير ذلك من ” المعاني “ التي لا تخطر للطفل على بال ، ثم اننا نتبع طرقا تختلف عن التدمير فنكتب ، ونرفع القضايا أمام المحاكم ، أو قد نؤلف قصيدة في هجاء المفضوب عليه . ولكننا في كلنا الحالتين نخاف ونغضب ، فإذا اعتبرنا المظاهر الثلاثة للغريزة فإن قابلية التعديل تنصب على اثنين منهما هما المظهر الإدراكي والمظهر السلوكي ولكنها لا تتناول المظهر الوجداني وهو الانفعال .

وهذه القابلية للتعديل مهمة جدا لأنها هي التي تسمح برفع مستوى السلوك الإنساني بأجمعه عن طريق الإضافة والإحلال والحذف ، وهي التي تسمح بهذا التنوع الكبير في سلوك مختلف الأفراد وهو الذي يكاد يغطي على الصورة الأصلية للغريزة ويوهم المشاهد السطحي أن الإنسان يكتسب سلوكه بالتلقين والعادة لا بالفطرة والسليقة . وهذا التعديل الذي يدخل على الغرائز يتأثر بما يمر به الفرد في حياته من خبرة أو تعليم يرفعان السلوك الغريزي من مستواه الفطري إلى مستوى أرقى .

فكان الغريزة بصورتها الفطرية نواة نستطيع عن طريقها أن نرقى بالفرد ونتيح له أن يسمو الى مستوى أعلا ، والواقع أن الرقى الذي يبلغه المجتمع إنما يأتي عن طريق تعديل غرائز أفراداه . وكل فرد يتأثر بالمجتمع بدوره ، فتعدل

غرائزه في الاتجاهات التي يسمح بها المجتمع ولتأخذ مثلا غريزة الخوف . فنجد في الشكل الآتي ما يبين الاتجاهات المحتملة لتعديلها .



وهكذا بالنسبة لباقي الغرائز، ومجرد التعديل لا يستلزم أن نسمو بالغريزة بل إن التعديل هو مجرد ربط الانفعال الغريزي بالمثيرات الجديدة أيا كانت، وطرائق السلوك الجديدة أيا كانت، وقد اختلفت أنواع التعديل التي تسمو بالفرد خلقيا واجتماعيا بامم الاعلاء (1)

لم تقف سيكولوجية مكديوجل عند هذا الحد بل إنها أكدت نقطة أخرى هامة هي حدوث تنظيم يتناول الغرائز في صورتها الفطرية ويحيلها الى صورة جديدة . وذلك أن الغرائز في صورتها الأولية قد تتضارب إذ تنشأ في حياة الفرد مواقف تثير أكثر من غريزة في وقت واحد ، كأن يجد الفرد نفسه وهو جائع مدفوعا بغريزة التماس الطعام الى التماسه من أى سبيل كالسرقة مثلا ، بينما تدفعه غريزة الخوف الى العدول عن ذلك .

ويتجاذبه الدافئان ولا يجد سبيلا الى ترجيح واحد منهما . وينقلب أن يتناوب الدافئان الغلبه عليه من لحظة لأخرى . وتتكرر أمثال هذه المواقف في حياة الفرد ولذلك فإن الحياة النفسية التي تعتمد على الغرائز وحدها تكون حياة مضطربة ليس فيها وحدة ولا استمرار ، وإنما يتراوح فيها الشخص بين النقيض تراوحا دائما (١) .

ولكننا نشاهد في سلوك الناس عادة نوعا من الاستمرار والوحدة والاستقرار يجعل من الممكن أن نتنبأ بالكيفية التي يتصرف بها شخص معين في موقف معين ، فأنت إذ تسمع عن صديق أنه خان أمانة وكنت اليه ، تقول : يستحيل أن يفعل صديقي مثل ذلك ! والواقع أنك إنما تستوحى ما تعرفه من سلوكه الماضي لتحكم على سلوكه في هذه الواقعة المعينة ، أى أنك تفرض نوعا من الاستمرار والوحدة في السلوك .

من أين يأتي هذا الاستمرار وهذه الوحدة ؟ الواقع أنها تأتي من تنظيم جديد يدخل على الغرائز ويؤدي الى نشوء دوافع جديدة للسلوك بالاشتقاق منها اطلق عليها اصطلاحا اسم العواطف (٢)

ولنأخذ مثلا عاطفة الصداقة مثلا ، فهي تنشأ من مقابلي لشخص معين عدة مرات متتالية ، ثم من احتكاكي بهذا الشخص في أثناء هذه المقابلات احتكاكا يشبع في رغبات معينة . فلا يلبث أن يصبح موضعا لاهتمامي ، ثم سرعان ما تتكون نحوه عاطفة نسميها عاطفة الصداقة ، فما علاقة هذه العاطفة بالغرائز ؟ الواقع

(١) قارن هذا بفكرة الصراع والكبت عند فرويد

(٢) Sentiments

أن العاطفة لا تتكون نحو هذا الشخص إلا إذا تكرر ارتباطه بمواقف تستثار فيها انفعالات الغريزية ويكون له نصيب في إشباع الغرائز. فهو عسرة يرضى عندي غريزة السيطرة، وأخرى يرضى غريزة التملك، وثالثة يرضى غريزة التجمع وهكذا . . . ومعنى هذا أنه قد ارتبط بعدد كبير من الانفعالات وبتى تكونت نحوه عاطفة الصداقة أصبح له في حياته النفسية أثرا إيجابيا ، فأنا أغضب لما يفضبه وأحزن لما يُصينيه وأفرح لما يناله وأضحى في سبيل مرضاته . . . وهكذا تصبح عاطفتي نحوه عاملا يتدخل في سلوكي ويرجح ألوانا من هذا السلوك على غيرها . وبعبارة أخرى تصبح هذه العاطفة مصدرا لانفعالات جديدة لها أثر في توجيه سلوكي .

و بهذه الكيفية تنشأ عاطفة الابن نحو أبيه وأمه، ويصبح لعاطفته نحوه من الأثر في توجيه سلوكه ما ناله جميعا : فالطفل يرضى الأم حتى ولو كان ذلك ضد نزاعاته الغريزية أحيانا، ويعمل على كسب عطف الوالد حتى ولو كان في ذلك تضحية برغبة ملحة . وتتكون عواطف الوالدين نحو أولادهم بنفس الكيفية .

ولكن هناك نوعا آخر من العواطف ، فالطفل إذ يقول الصدق إرضاء لأبيه إنما يفعل ذلك بسبب عاطفته نحو الأب . ولو أراد له الأب أن يكذب لفعل ما دامت العاطفة ترمي إلى مجرد إرضاء الأب .

ولكن قد يأتي اليوم الذي يقول فيه الصدق حتى ولو كان ذلك ضد أبيه أو ضد نفسه . وما ذلك إلا لأنه قد تكونت عنده عاطفة نحو الصدق نفسه ، بنفس الكيفية التي تكونت بها عاطفته نحو أبيه فيما مضى . ومن أهم التطورات في حياة الفرد الخلقية تكوين العواطف نحو الصفات والأفكار والمعنويات ، ويغلب أن يأتي ذلك عن طريق تأثير الأبوين والمجتمع المحيط بالطفل في توجيهه ، سواء التأثير المباشر بالاملاء والنصح، أو غير المباشر بالقدوة والمثال .

وهنا نرى بادرة " الخلق " عند الشخص . لأن التنظيم ارتفع عن المستوى الغريزي إلى المستوى العاطفي الحسي ، ثم إلى المستوى العاطفي المعنوي .

ولا يلبث أن يدخل على العواطف نفسها تنظيم يشبه التنظيم الذي دخل على الغرائز .

فمواطف الشخص نحو الصدق والفضل والسمو والقوة والبأس والوطنية الخ... لا يكون لها نفس الأثر في حياته إذا لم تنظم تحت قيادة واحدة ، وهذه القيادة تأتي من "عاطفة اعتبار الذات" (١) كما يسميها مكدوجل وهي العاطفة العليا في حياة الإنسان . ويمكن وصفها بأنها تنظيم جديد للمواطف حول الذات (٢) باعتبارها مالكة للصفات المحبوبة من الشخص . فإنا قد أعجب بملبس سيدة متأقنة وقد آكون نحو هذه السيدة عاطفة ، غير أنى لا أنظر إليها كما لو كنت أتمنى أن اتصف بصفاتها ، ولكننى إذ أعجب برجل قوى أو فاضل ، كثيرا ما يتضمن إعجابى رغبة فى الاتصاف بصفاته .

(وهذا هو موقف الطفل من تكوين عواطفه ، فهو عندما يكون عواطفه نحو شخص ما ، يبدأ فى الوقت نفسه بأن يكون عواطف نحو صفات هذا الشخص ، ولا يلبث أن ينتقى من صفات مخالطيه ومعارفه وأبطال قراءته وغيرهم مجموعة من الصفات يكون من مجموعها نوعا من المثل الأعلى الذى يحب لذاته أن تتصف به وهذا هو طريق نشوء عاطفة اعتبار الذات .

(ومتى نشأت هذه العاطفة أصبح الشخص يحكم على سلوكه بقدر ما يضيف هذا السلوك إلى اعتباره لذاته أو ينقص منه . فما يضيف فهو سلوك مرغوب فيه ، وما ينقص فهو سلوك مرغوب عنه . ويصبح هذا هو المقياس الذى يقيس به تصرفاته ، فهو لا يجرى وراء مجرد إرضاء غرائزه ، أو عواطفه نحو الأشخاص ، أو حتى نحو الصفات ، بل إن الحكم الأخير فى أى تصرف من تصرفاته هو ما يضيف أو ينقص هذا التصرف من اعتباره لذاته ، فيقرب بها أو يبعدها عن مثلها الأعلى . انظر إلى تصرف الجندي الذى يقبض الأعداء عليه وعلى أولاده ويعذبونه ويعذبون أولاده لكى يبوح بأسرار وطنه . أنه يقاوم نزعه الإبقاء على نفسه ويقاوم عاطفته نحو أولاده ويقاوم كل ذلك ، لأن اعتباره لذاته لا يسمح له أن يرتكب ما يطلب إليه ولو فعل عاش معذبا لأن "الضمير" وهو مرتبط بهذه العاطفة يمكنه لأنه لم يرتفع بالفعل إلى مستوى الفكرة .

وكانت سيكولوجيته مكدوجل أول محاولة جديّة لتفسير السلوك الإنساني على اختلاف أنواعه على أساس واحد . فسيكولوجية الفرد وسيكولوجية الجماعة وسيكولوجية الشواذ "العصاةيين والمجانين" (١) كانت تسمير كل منها قبل ذلك في اتجاه مستقل . وقد حاول مكدوجل أن يجعل نظريته ذات أساس واحد يمكن تطبيقه على جميع هذه الحالات . وقد نجح لحد كبير في تفسير نفسية الجماعات على نفس الأسس التي وضعها لنفسية الأفراد (٢) ولكنه لم يبالغ نفس النجاح إذ حاول أن يفسر نفسية الشواذ ففي كتابه "علم نفس الشواذ" لم يستخدم من الأسس التي أوردتها في نظرياته الأساسية إلا عددا محدودا ، وحتى هذه لم يستطع استخدامها بحيث تبقى بتفسير أنواع السلوك الشاذ التي تعرّض لها وفاء تاما ، وبذلك نخرج كتابه وهو كبير الشبه بالكتب التي وضعت في نفسية الشواذ بدون أن تشتق كثيرا من نظريات علم النفس العادي (٣) وعلى ذلك بقي عندنا بالرغم من محاولات مكدوجل ، تياران مستقلان في علم النفس وإن كانت الصلة بينهما قد أصبحت أوثق كثيرا من ذي قبل .

هذه خلاصة وافية لسيكولوجية مكدوجل ، وقد أوردناها بهذا التطويل لسببين : الأول — أنها تحمل في ثناياها كثيرا من الأسس التي ظهرت في سيكولوجية فرويد (٤) . والثاني — أنها تمثل نفس الاتجاه لإبراز أهمية الغريزة والانفعال ، وإن كان مفهوم هذين اللفظين والعلاقة بينهما تختلف اختلافا كبيرا بين المدرستين .

غير أن الفرق بين المدرستين يظهر في نقط أساسية جدا ، ولعل أهم هذه النقط — وقد سلم بها مكدوجل في بعض كتاباته الأخيرة تسليما مطلقا — كشف المنطقة المجهولة من العقل المسماه بالاشعور .

فتكوين العواطف والخلق عند مكدوجل إنما هو نتيجة الاتصال الشخصي بالبيئة في مستوى شعورى بل لعلى مكدوجل جعله منطقيا أيضا .

(١) Abnormals : Neurotics & Psychotics واستخدام عصاةيين هنا مقتبسة من الدكتور يوسف مراد (شفاء النفس) ١٩٤٥ وقد أخذنا عنه بعض المصطلحات الأخرى .

(٢) راجع كتابه The Group Mind (٣) راجع كتابه An Outline of Abnormal Psych-

(٤) يعتبر مكدوجل وفرويد معاصرين من الوجهة التاريخية ، بل إن فرويد سابق لمكدوجل إذ ظهرت أولى كتاباته سنة ١٨٩٥ وظل ينشر نظرياته تباعا حتى قبيل وفاته في سنة ١٩٤٠ أما مكدوجل فقد ظهر كتابه الأول سنة ١٩٠٨ يحوى نظريته كاملة تقريبا .

وما يحدث من التنافس والصراع بين الرغبات المتناقضة شعورى أيضا ، وعاطفة اعتبار الذات وهى جُماع الخلق عند مكدوجل تكاد تكون خلاصة منطقية لما يمر فيه الشخص من تجارب ، ثم إن أثرها فى حياة الشخص أثر منطقي . فإذا تصورنا شخصا مر فى الأدوار التى رتبها مكدوجل فنُظمت غرائزه إلى عواطف ، ونُظمت عواطفه ونكوُنت عاطفة اعتباره لذاته ، فإنه يصعب علينا أن نتصور كيف يرتكب هذا الشخص خطأ ، وكيف يمكن أن يجسد عن الطريق الذى توحى به هذه العاطفة المسيطرة . حقيقة أن مكدوجل قد احتفظ للغرائز بقوتها الدافعة وبالقدرة على التنافس مع القيم العليا . ولكن لم يؤكّد هذه النقطة تأكيدا كافيا . وذلك طبعى لأن تنافس غريزة مفردة مع عاطفة كماطفة اعتبار الذات تنافس بين متفاوتين متفاوتا كبيرا ، فإذا أتينا إلى مدرسة التحليل النفسى نجد أنها قد نجحت فى معالجة أمثال هذه النقطة بالذات ، إذ جعلت الصراع بين « نزعة » لا شعورية وبين « ذات (١) » شعورية فأعطى للنزعة سلاح التخفى تحارب به فى سبيل غاياتها بغير أن تكشف عن نفسها .

وعند مكدوجل أن التنافس بين غريزتين ينتهى إلى اندماج الانفعاليين المشتقين منهما فى انفعال واحد ، فكأن كلا من الدافعين الغريزيين قد وصل إلى درجة معينة من الاشباع ، وبذلك تنتهى قصة هذا « الصراع » بالذات إلى نوع من الاتفاق ، أما عند فرويد فإن النزعات إذ تتضارب أو تتصارع إنما تتغلب إحداها تغلبا مطلقا بينما تنهزم الأخرى هزيمة مطلقة ، والنزعة المهزومة هى التى تتحدّر إلى « اللا شعور (٢) » وتبقى تحت ضغط مستمر وفى محاولة دائمة لتصل إلى الاشباع الذى حرّمته . فالصراع عنده ذو أثر دائم والمعركة لا تنتهى ، واذن فقصة كل صراع نفسى فى حياة الإنسان قصة لها ما بعدها .

ويمكن أن ننظر إلى سيكولوجية مكدوجل باعتبار أنها سيكولوجية الجانب الشعورى من النفس ، وهى فى هذا تتفق فى أكثر من نقطة مع سيكولوجية

(١) النزعة Impulse يمكن اعتبارها مقابلة للغريزة ، والذات Ego نتيجة تنظيم للنزعات فهى من بعض الوجوه تقابل العاطفة المذكورة

(٢) Unconscious راجع الباب الرابع

”الذات“ (١) عند فرويد . وكان من الطبيعي أن تتركز سيكولوجية فرويد في مبدأ الأصر على القوى اللاشعورية ولذلك كانت كتاباته عن ”الذات“ متأخرة نوعاً (٢) وفي معالجة فرويد للذات كان اهتمامه موجهاً للذات باعتبار علاقاتها بالشمسوى الأخرى المتصلة بها . ولعل التحليل النفسى أو عنى ”بالذات“ لنفسها وحاول أن يصف فكرة ”الذات“ عن نفسها ووصفها لما يحدث في النفس ، والصدى الشعورى للتطورات المختلفة التى تحدث فيها لأخرج لنا فكرة لا تختلف عن فكرة مكدوجل كثيراً .

يمكن إذن أن نعتبر أن فرويد نظر إلى العقل من زاوية اللاشعور واتصل بالذات الشعورية بالقدر الذى يهيمه من هذه الزاوية . أما مكدوجل فنظر إلى العقل من ناحية الذات الشعورية فلم يكن له اتصال يذكر باللاشعور ولو أن المتسعن في كتاباته يجد أنه كثيراً ما كان يقترب من فكرة اللاشعور اقتراباً كبيراً ثم لا يلبث أن يتعد عنها صرة أخرى ، ولعل خير مثال على ذلك أن مكدوجل في كتابه ”علم النفس الاجتماعى“ (٣) وصف مثالا للصراع بين نزعتين ”ص ١٥٣“ ولكنه سرعان ما تخلص من النتيجة التى كان يمكن أن ترتب على الأفاضة في بحثه بأن ذكر أن النزعتين في النهاية تندمجان اندماجاً ناقصاً وتكونان شيئاً لا نجد له اسماً تسميه به ”ص ١٥٤“ ، وقد اعتبر مكدوجل الانفعال فى هذه الحال انفعالاً مركباً (٤) وبما أن الانفعال المركب ناتج من تنافس غريزتين فمن الواضح أن أياً منهما لم تصل إلى التعبير الكامل بل إن هذا الاندماج أو ”المزج“ يقتضى أن ينال كلا من الغريزتين قدر من التعطيل . وربما كانت النتيجة التى وصل إليها مكدوجل هنا ضرورية في ضوء نظرية الانفعالات التى نادى بها ، وهى التى تجعل لكل غريزة انفعالاً قائماً بذاته خاصاً بها ، بينما جعل فرويد الانفعال رصيماً عاماً عند الإنسان ، يظهر في مختلف المواقف بصور مختلفة ، وقد اعتبر مكدوجل أن الانفعال هو مظهر أساسى من مظاهر الغريزة وهو موجود دائماً في المواقف الخاصة بهذه الغريزة سواء وجدت الغريزة في هذا الموقف

(١) Ego أو كما تسمى ”الأنا“ وهى تشمل الجزء الشعورى من النفس ، أو النفس بالمعنى القديم

(٢) نشر كتاب The Ego & The Id في سنة ١٩٢٣ — راجع : Psycho-Analysis Today p. 143

(٣) طبعة عام ١٩٣١

(٤) complex

تسهيلاً أم "تعطيلاً" (١) فالانفعال عند مكدوجل خاص ولا مناص من حدوثه ، ولكن فرويد ينظر إلى الانفعال على أنه عام ، وهو ناشئ عن التعطيل ، وفوق ذلك فهو لا يرتبط بالمرقب الراهن فقط وإنما يشتمل من مواقف سابقة في حياة الفرد ، وليس عند مكدوجل شبيه بهذا إلا في غريزة المقاتلة حيث يعتبر انفعال الغضب ناشئاً عن المقاومة التي تجدها أى غريزة أخرى تهيأت أسباب إنارتها (٢) .

ولمكدوجل حظوة كبيرة عند المرين لأنه أعطى لهم نظاماً لبناء الخلق على أساس الفرائز والعواطف . وهذا النظام مفيد إذا نظرنا إليه باعتباره جزءاً من تدريب الذات تدريباً كثيراً ما يجد صدى في باقى جوانب النفس . وإن كنا لا نكتفى بذلك الآن إذ أن من الخطر إغفال القوى اللاشعورية في بناء الخلق .

والواقع أن العلاقة بين المذهبين لا تزال في حاجة إلى دراسة أكثر تفصيلاً وإن مكدوجل يشير إلى ذلك في كتابه "علم النفس الاجتماعى والتحليل النفسى" .

والواقع أن الكشف الذى بهر به فرويد أنظار العالم والذى لم تتردد الأغلبية العظمى من علماء النفس فى أن تعترف به ، هو اللا شعور ، وهذا الكشف وحده يجعل من فرويد كما قال مكدوجل "الرجل الذى أضاف إلى معرفتنا بالطبيعة البشرية أكثر مما فعله أى إنسان آخر منذ أرسطو" (٣) " وربما كان من الضرورى لإكمال هذه المقارنة أن نذكر اهتمام فرويد بالنزعة الجنسية ، والجنسية عند فرويد هى فى الواقع من التفاصيل الفنية ، وهى بهذه الصفة لم تكن تستحق كل ما أثير حولها من الغبار ، خصوصاً من علماء النفس ، الذين نعت بعضهم نظرية فرويد بنظرية تمجيد الجنسية ، والأمر بعيد عن ذلك كل البعد ، لأن الجنسية عند فرويد كما سنرى ما هى إلا مبدأ لتفسير السلوك الإنسانى على أساس واحد . ثم إن نظرية اللاشعور لا يكون لها داع قوى إذا لم تكن الدوافع التى تكبت دوافع من النوع الذى يحجج الشعور ويتجاهله ، وعلى ذلك فلا يمكن الأخذ بواحد منهما — اللاشعور والجنسية — دون الآخر .

Inhibition (١)

Mae Curdy : The Psychology of Emotions, 1925; chs. VIII & IX (٢)

Mc. Dgl. : Psycho Analysis & Social Psych 1936 (٣)

وقد نجح فرويد فيما لم ينجح فيه مكدوجل فقد استطاع أن يصل الى تفسير شامل للسلوك الإنساني على اختلاف أنواعه على عدد محدود من الأسس . وقد اعترف بذلك مكدوجل نفسه (١) .

وقد كانت نقطة البدء عند فرويد هي العلاج الطبي ، ولكن النظرية ما لبثت أن شجرت الميادين الأخرى على اختلافها ، فدخلت ميدان علم النفس العام ثم علم نفس الأطفال ، والبدائيين ، وما لبثت أن اجتذبت أنظار علماء الاجتماع ، وعلماء الاثروبولوجيا ، بل والساسة ورجال الحرب ، فبدعوا يعتقدون عليها آمالا كبارا ، ويتأرون ملاحظاتهم في حقول تجاربهم المختلفة بنتائج النظرية ، ويهتمون بما يجدون مما يؤيدها أو يعارضها .

وفي فصول الكتاب التالية ستجد شرحا وافيا لنظريات فرويد .

(١) ص ١٥ من : Mc. D. : Psychoanalysis & Social Psychology